(الفصل الثالث)

جماعة الديوان

عوامل مؤثرة في تطور الشعر :

على الرغم مِمّا قدمه شعراء الإحياء (المعتدلون) من جديد في مجال القصيدة الحديثة إلا أنهم ظلوا مشدودين إلى جذور القصيدة القديمة في موضوعاتها وأساليبها ومعانيها وصورها . والسبب في ذلك ، هو أن مفهوم الشعر ووظيفته لديهم ، بقي إلى حدٍ بعيدٍ لا يُغادر مفهومه القديم ، حتى فيما جددوا من موضوعات ، وسلكوا من أجناس أدبية، كما حصل لشوقي .

ولقد كان إلى جانب هؤلاء ، جيل آخر ، وعى الشعر ومفهومه ووظيفته ، على نحو ما شاع لدى شعراء التيار الرومانيكي في أوربا ، والانكليزي منه على الخصوص وفي مقدمة هؤلاء الشعراء ، مجموعة أُطلق عليها (جماعة الديوان)، مؤلفة من عباس محمود العقاد وعبد الرحمان شكري وابراهيم عبد القادر المازني .

لقد عاش هؤلاء الشعراء النقاد ، في ظل منعطف ثقافي وفكري واجتماعي وسياسي ، ظهرت بوادره منذ نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين .

وقد دفع إلى هذا التغير عوامل شتى ، ألمحنا اليها في تمهيدنا لهذا الكتاب ، ولكنها أتت أكلها في مطلع هذا القرن بفعل تدفق الصحف الأوربية ، التي حوت كل جديد في الأدب والسياسة والاجتماع والنظريات الفلسفية والمذاهب الأدبية . وكان لحركة الترجمة التي نهضت على يد رفاعة الطهطاوي ، الأثر الفاعل في عملية التغيير ، إذ تمَ ترجمة

المئات من القصص الغربي وكتب النقد ، ومنها كتاب (الذود عن الشعر) لشيلي وقواعد النقد الأدبي لابركمبي و(فنون الأدب) لتشارلتن و(منهج البحث في اللغة) لأنسونومابيهو(فن الشعر) لهوارس . وغير ذلك في الكتب الأدبية والنقدية .

كما ترجم من الشعر آثار عديدة لأقطاب التيار الرومانتيكي والرمزي فكتور هوجو ولأمرتين وألفرد دي فيني وألفرد دي موسيه وفرلين وبول فاليري

وقد أهتمت الصحف والمجلات بترجمة الآثار الشعرية على صفحاتها مقدمتها المقتطف والسياسة والثقافة والرسالة .

وفي ، الشعر ترجم الكثير من آثار شكسبير وبيرون وكيتس وشيلي ووردز وترجم خليل مطران لشكسبير (هاملت ومكبث وعطل وتاجر البندقية والملك لير) محمد عوض ابراهيم (كما تهواه) و(انطونيو وكليوباترا) و(الليلة الثانية عشرة) وترجم محمود طه لشيلي في كتابه (أرواح شاردة) . وترجم العقاد لتوماس هاردي في (ساعات بين الكتب) وغير هذا كثير .

وهكذا تصبح كُتب الأدب والنقد والمسرح والرواية في متناول الأيدي ، وتؤ ثمارها الناضجة في عملية التأثير .

وكان للبعثات أثرها الفاعل في تطور الأدب ، ويكفي أن أحد أقطاب جما الديوان وهو عبد الرحمن شكري ، ومعه رأس جماعة أبولو ـ أحمد زكي أبو شادي وابراهيم ناجي ، أنهم زودوا بالثقافة الانكليزية الشعرية أثناء إقامتهم في انكلترا للدرا فيها . وتعمق المازني بالثقافة الانكليزية ، وكوّن العقاد لنفسه ثقافة أوربية عميقة وواس جعلته أحسن نُقاد عصره وشعراء جيله .

✿ ✿ ✿

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كان للمذاهب الأدبية الأوربية التي غزت رياح الوطن العربي منذ نهاية القرن التاسع عشر ، تأثير شديد في شعراء هذا الجيل ، أولاً لأ ينسجم مع طبيعتهم التواقة لكل جديد ، وينسجم مع نفوسهم الآسية التي اكتوت با الواقع المرير السياسي والاجتماعي والفكري .

ولقد تهيأ لهؤلاء أن المذهب الرومانتيكي بالذات - وهو المذهب الذي يسعى إلى هدم القديم - هو الذي يحقق ما يدعون إليه من أدب ابتداعي ، يخاصمون به الأدب الاتباعي . وقرّ في أذهانهم أن هذا المذهب جاء تعبيراً عن المفاهيم المعاصرة للطبقات المُتطلعة إلى الحياة الجديدة . وهي الطبقة الوسطى ، التي صاروا يُعبرون عن مضامينها في شعرهم .

ومعروف أن هذا المذهب ، هو أدب فردي ، يُعنى بمشاعر الإنسان ، ويسعى إلى تحقيق المبادئ التي تسمو به إلى الحرية والسعادة ، ويسعى في تعبيره إلى البعد عن عناصر الزخرفة والصنعة .

وقد أمعنت الرومانتيكية في الخيال ، ونشدت البساطة في التعبير ، وسلكت طريق الفطرة والطبع الصادق ، ونادت باستيحاء الأديب لمشاعره وعواطفه وأحاسيسه . وابتعدت عن التكلف ، وتجنبت التشبيهات المتوارثة عن القديم .

واحتلت العاطفة مكاناً كبيراً في شعرهم ، فالحب عندهم فضيلة وسعادة منشودة مهما قاسى الإنسان في سبيل تحقيقها ، وهو لا يطلب الجسد ولكنه يطلب متعة الروح[1] ومن أهدافهم بناء عالم تتحقق فيه حرية الإنسان ، بعيداً عن كل المواضعات الاجتماعية القائمة وقد عشقوا الطبيعة ولجأوا إلى الغاب ، هروباً من المدينة وسعياً إلى الترويح عمّا في نفوسهم من المآسي والآلام ، وبثوها مايشعرون به من شقاء وما يُعانون من وحدة المجتمع ومن هنا حلقوا في أجوائها على أجنحة الخيال حالمين (بيوتوبيا) أشبه بجمهورية أفلاطون - ولقد كانت ظروف هؤلاء الشعراء الخاصة ، وظروف أمتهم العامة مهيأة لاستقبال هذا المذهب ومن هنا راحوا يقرأون شعر شيلي ووردزورثوبايرون ولامارتين والفرد دي فيني ما يعبر عمّ تطلعهم نحو الجديد .

واندفعوا إلى شعر الرمزيين يعتمدون الإيحاء والصور الظليلة في أساليبه ، بعيداً عن المباشرة ، ومن هنا كانت عنايتهم بالعنصر الموسيقي الذي يعتمد الإيحاء بعيداً عن جلجلة

---

(١) ينظر : الرومانتيكية - محمد غنيمي هلال / ١٤٤.

مفاهيم نقدية جديدة ، ربما فاقت في روعتها وقيمتها معظم ما أنتجوه من شعر.

دواعي النشأة :

لم يكن قيام جماعة الديوان محض صدفة ، بل كان ضرورة اقتضاها تغير الأدب والشعر الذي ظلّ لدى شوقي وجماعته يستمد أصولها من القديم ، بعيداً كان يجري حولها من تيارات شعرية ومذاهب أدبية ونقدية .

وفي ظل هذا التصوير الجديد للشعر العربي ، التقى العقاد بالمازني الذي تعرف مدرسة المعلمين العُليا عام ١٩٠٩، والتقى بشكري الذي عاد من انكلترا. فاجتمعوا لِيكونوا هذه الشركة الأدبية ، فيخرج شكري ديوانه الأول سنة ١٩٠٩ ويسميه الفجر) ثم يصدر الجزء الثاني منه سنة ١٩١٣، ويقدم العقاد له بمقدمة نقدية وتتعاقب أجزاء دواوينه لتبلغ سبعة أجزاء كان آخرها عام ١٩١٩ وهو ديوان الخريف).

ويخرج العقاد ديوانه الأول سنة ١٩١٦ ويسميه (يقظة الصباح) ثم يصدر الثاني سنة ١٩١٧ ويسميه (وهج الظهيرة) ، والثالث ١٩٢١ ويسميه (أشباح الأصيل) يصدر بعدَ ذلك ديوانه (وحي الأربعين) وديوانه (عابر سبيل) ويتوالى إصداره الدواوين الأخرى حتى تبلغ عشرة آخرها (ديوان من الدواوين) سنة ١٩٥٨. ويتبعهما المازني فيخرج ديوانين من الشعر ، الأول سنة ١٩١٣ والثاني سنة ١٩١٧. ويشترك مع العقاد في إصدار كتاب (الديوان في الأدب والنقد) سنة ١٩٢١، وهو أول كتاب نقدي يتضمن الكثير من الآراء النقدية الجريئة . وكان من أهم دواعي هذا اللقاء ، أن هؤلاء الشعراء النقاد ، قد اتفقت ميولهم وتشابهت أفكارهم على تخليص الشعر من وهاد التبعية والنهوض به إلى ما يسمو بالعواطف الإنسانية في صدق وإخلاص وواقعية .

وقد أوضح ناقدهم الأول العقاد ـ هذه الأهداف في العديد من مواقفه النقدية خصوصاً في نقده زعيم التيار الكلاسيكي . ومن ذلك قوله موجهاً كلامه لشوقي :

(أعلم أيها الشاعر العظيم ، أن الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء ، لا من يُعددها

ويُحصي ألوانها، وأن ليست مزية الشاعر أن يقول لك عن الشيء، وليس همّ الناس أن يسابقوا في أشواط البصر والسمع، وإنما همهم أن يتعاطفوا، ويودع أحسنهم وأطبعهم في نفس إخوانه زبدة ما رآه وما سمعه، وخلاصة ما أستطابه أو كرهه. وإذا أن وكدك من التشبيه أن تذكر شيئاً أحمر أو أشبه مثله في الاحمرار، فما زدت على أن ذكرت أربعة أو خمسة أشياء بدل شيء واحد، ولكن التشبيه أن تطبع في وجدان سامعك وفكره، صورة واضحة، مِمّا انطبع في ذات نفسك، وما أبتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان، فإن الناس جميعاً يرونَ الأشكال والألوان محسوسة بذاتها كما تراها، وإنما أبتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفسٍ إلى نفس. وبقوة الشعور ويقظته وعمقه واتساع مداه ونفاذة إلى صميم الأشياء يمتاز الشاعر على سواه [1].

كما أوضح العقاد في مقدمته لديوان المازني أن على الشعر أن يواكب حياتنا الحاضرة، وأن لا يكون أسيراً لما مضى.

ولقد أحدث قيام جماعة الديوان، وفي أعقابه شعراء المهاجر الأميركية، هزة قوية في مجال الشعر والنقد، لأنها لم تناد بتجديد شكل القصيدة حسب، بل تجاوز ذلك محتواها الفكري، في تعبيره عن النفس الإنسانية في صدقٍ وإخلاص. ولذلك نادى هؤلاء بهجر الموضوعات القديمة، ومعانيها المُستمدَة من بيئاتها الخاصة كما نادوا بالبُعد عن الأخيلة والصور القديمة. وهذا المضمون الجديد لا يلغي تماماً المضامين القديمة، لكنه يُحقق لنفسه انسجاماً مع روح العصر وتفكيره وصور الحياة فيه.

وليس هذا فحسب، فقد نادى شعراء الديوان بتغيير الصور والأساليب. وكان من نتائج دعوتهم، القصة والمسرحية والمقالة.

والواقع أن قيام جماعة الديوان إبان هذا القرن، قد صادف سيطرة التيار الكلاسيكي على الحياة الأدبية، والذي أرتبط بالطبقة العالية في المجتمع، وراح شعراؤه يُقيدون أنفسهم بالكثير من جوانب تلك الطبقة ومُثُلَها، بعيداً عن وجداناتهم الفردية ومشاعرهم

(١) الديوان ١ / ١٦.

وهذه المضامين هي نفسها التي نادى بها الشعراء الرومانتيكيون الشعر . ولم يقف شعراء الديوان عند حدود المضامين وحسب ، بل جددوا في الأوزان واستخدموا الشعر المزدوج وحققوا الكثير مما ...

(ملامح التجديد في الشعر)

استعرضنا في الصفحات الماضية ، مُلخصاً للمفاهيم النقدية التي أطلع علينا بها جماعة الديوان . وهذه المفاهيم تعد تنظيراً دقيقاً وواعياً لنقدنا الحديث .

وها نحن نستعرض الآن ما قدموا في ميدان الشعر ، مُلمين بما استطاعوا أن يطبقوه من تلك المفاهيم على شعرهم .

لقد حاول شعراء الديوان أن يستجيبوا في شعرهم للمفاهيم النقدية التي نادوا بها . فتحقق لهم من ذلك الكثير ، وخصوصاً في مجال المضمون الشعري الذي جعلوا وظيفته ، التعبير عن النفس ، وتصوير العواطف في صدق وإخلاص وواقعية .

وفي ظل هذا الفهم يكون الشعر عندهم تجسيداً للعواطف الإنسانية ، وتصويراً للمشاعر البشرية وما تضطرب به من خير وشر وألم ولذة وحب وكره . كما يكون أيضاً تعبيراً عن الطبيعة وأسرارها العميقة وحقائقها المعروفة .

وهذا يعني أن الشعر لديهم ذاتي عميق الذاتية ، بعيدٌ عن الأريحيات الوطنية ، بل هو حديث نفس إنسانية تُجسد كلّ ما يُداخلها من وساوس وهموم وتطلعات وآمال وطموحات . كما تُترجم ما يتصل بالحياة وكُنهها ، والكون وألغازه الخفية . ولا شك أن هذه المضامين ، بعيدة كل البعد عن المضامين التي حمل رسالتها شعراء الأحياء .

وأكبر الظن أن شعراء الديوان قد تأثروا في هذه المضامين بالشعراء الرومانتيكيين الذين استسلموا لأحلامهم وانقادوا لذواتهم التي طوتها الأحداث الكبار في مطلع القرن التاسع عشر ، وعلى هذا جرى شعراء الديوان الذين قرأوا لشعراء البحيرات وشعراء النبوءة والمجاز ومن جاء بعدَهم .

ومن يُطالع دواوينهم يجد قصائدهم لا تخرج عن هذه الموضوعات ، فهي لدى

شكري تفصح عما ينتاب نفسه من رجاء ويأس وفوز وفشل ، ويقين وشك وحزن وفرح واستقرار وخلق ، وكل ما يتصل بهذا من انفعال وتأثر . وهم والمازني ، لا تخرج عن هذه الأشياء .

لقد عبّر شعراء الديوان عن موضوعاتهم بالإحساس الحاد والشعور العميق أحساس وشعور يُسيطر عليه يأس شديد وتشاؤم عميق ، يفيض بالأنين والشكوى الحياة وظلم الناس .

وربما ينتهي هذا الإحساس الحاد بالألم إلى حالة نفسيّة يطلق عليها (مرض العصر) وهي ظاهرة ارتبطت بالشعر الرومانتيكي الأوربي .

فإذا عرفت تأثر شعراء الديوان بشعراء هذا المذهب ، وعرفنا ما كان يُعا من الآلام وأحزان ، وما كانت تضطرب به نفوسهم من وساوس وأحلام ، أدركنا المواقف التي جسدوها في شعرهم .

لِنستمع إلى العقاد في قصيدته (حظ الشعراء) ، كيف يصور حالته وحال الذين ضاقت بهم الحياة فأضنى العذاب نفوسهم ، وبعدوا عن الدنيا وبهرجها ضائعون تائهون لا يملكون سلاحاً يذودون به عن أنفسهم :

مُلوك فأما حالهم فعبيد ... وطير ولكن الحدود تم
أقاموا على متن الحساب فأرضهم ... بعيد وأقطار السماء بعـ
بني الأرض كم من شاعرٍ في دياركم ... غبين وغبن الشاعرين شا
بني الأرض لا تنضوا له السيف إنه ... يُذاد عن الدنيا وليس بذ
مقيمٌ على عرش الطبيعة حاضر ... ولكنه بين الأنام فقيـ
وأقصى مناه في الحياة نهاره ... وأدنى مناه في الممات خلو
إذا عاش في بُأسائه فهو ميت ... وإن مات عاش الدهر وهو شهـ

والقصيدة تمتلئ بهذه الصور التي يتطلع فيها العقاد إلى حياة المجد والخلود

انه لا يجني من حياته سوى البؤس والشقاء والإحساس بالعسف.

ولم يكن المازني أقلّ إحساساً من زميله العقاد بهذه الأزمة النفسيّة الحادّة. لنستمع اليه وهو يرثي نفسه، مجسداً شعوره بالأسى والضياع والتشرد فيقول:

قضى غير مأسوفٍ عليه من الورى فتى غمره في العيش نظم القصائد
فعاش وما واساه في العيش واحدٌ ومات ولم يحفل به غير واحد
ولم يبكيه إذ مات إلاّ أجيرة لها زفرةٌ لولا اللهي لم تصاعد
فلا دمعٌ روى يوم ولي ترابه وكيف يروي ترابه غير واحد

أمّا عبد الرحمن شكري، فكان أكثر إحساساً بالضياع والتمزق، وقد انتهى به هذا الإحساس إلى يقينه بالمصير المحتوم، وهو الموت. يقول في قصيدة يخاطب فيها المجهول:

يحوطني منك بحرٌ لست أعرفه ومهمةٌ لست أدري ما أقاصيه
أخالُ أني غريبٌ وهو لي سكن خاب الغريب الذي يرجو مقاصيه
وأكبر الظن أني هالكٌ أبداً شوقاً اليك وقلبي فيه ما فيه

وفي قصيدة شكري هذه تأملٌ فلسفي ملحوظ، لا يقتصر عليه وحدَه، وربما فاقه العقاد فيه، وقصيدته المشهورة (ترجمة شيطان) تعد معلماً في طريق القصيدة الفلسفية التي يترع فيها العقاد نزعة تأملية. ومنها نزعة متمردة تشك في كل شيء لتصل درجة التجديف على لسان الشيطان[1].

وربما تُمثل قصيدة شكري (حلم بالبعث) هذه النزعة المتمردة الشاكة، وهي نتيجة

(1) تنظر القصيدة بديوانه / ٢٣٨